أكرم مسلّم*

سلمان ناطور: جسد الذاكرة

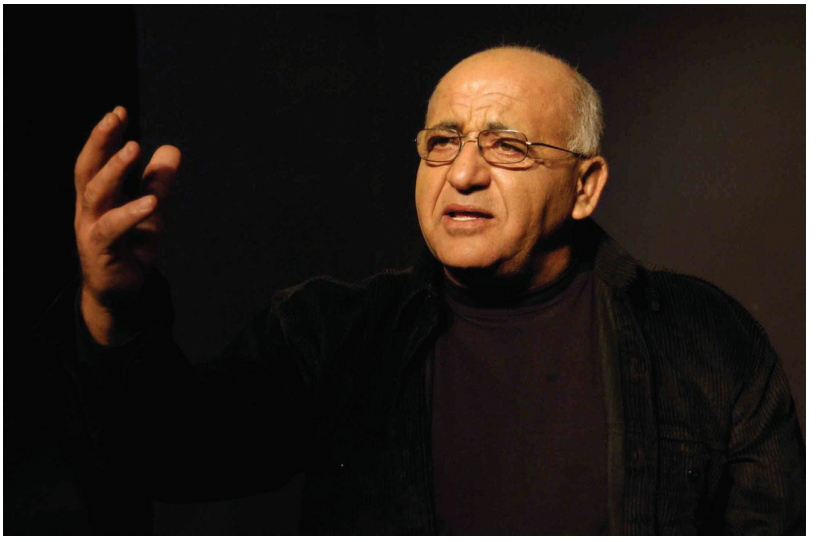

يَكُفّ الماضي ـ في التراجيديات الكبرى ـ عن كونه ثقلاً متروكاً في الوراء، إذ يفقد حاضرُ الضحايا قدرته على التحقق العادي بسبب الحدث النكبوي، وبدلاً من أن يجرّ الضحايا التراجيديون ماضيهم وراءهم، يتحتّم عليهم أن يدفعوه أمامهم، فيما يشبه اللعنة، كشرط بقاء في قيد التاريخ، وعلى أمل الجغرافيا.

لا يمكن قراءة تجربة المبدع الراحل سلمان ناطور (١٩٤٩ ـ ٢٠١٦)، كحارس ذاكرة، بعيداً عن هذا الفهم للتجربة الفلسطينية، ولا يمكن رؤيته خارج إطار جيل من الضحايا خيّب رهان الجلاد على النسيان، بأن حوّل الماضي من قصة

* روائي وكاتب فلسطيني.

هزيمة ومساحة حنين، إلى آنٍ ثقافي وسياسي عنيد.

لكن أين تكمن خصوصية صاحب ثلاثية "ستون عاماً، رحلة الصحراء"، وما الذي يعطيه نكهته؟ كيف حكى الحكاية، ولماذا نجح في أن يكون حارساً لها، لم تغمض له عنها عين إلى آخر الطريق وإلى آخره؟

استند مشروع ناطور بداية إلى رؤية مبكرة وواضحة وبسيطة، لكن جوهرية وعميقة، فحواها أن "اللعبة" مع المشروع الكولونيالي الصهيوني لعبة تذكّر ونسيان، وأن مسألة الذاكرة هنا نقيضها الموت، وبذا تستحق بذل كل ما يقتضيه تحدّي الحياة؛ "ستأكلنا الضباع إن بقينا بلا ذاكرة"، قال ناطور في جملة تصلح أن تكون عنواناً لحياته كلها، وقد تفرّع عن هذا العنوان قاموس ثقافي وجمالي، توزعت مفرداته بكثافة على ألسنة الشخوص المستعادين من هوامش النفي والإقصاء إلى صدارة المتن.

عرف ابن دالية الكرمل ـ كباقٍ في حيفا بقاء منقوصاً وملتبساً ومهدداً ـ ضمن انتباهات كثيرة، أن خيار استيقاف ذكريات فقدت مكانها، لحماية مكان قد يفقد ذاكرته، خيار صعب، لكنه خيار وحيد، الأمر الذي يعبّر عنه في روايته الفنتازية الأخيرة "هي، أنا والخريف"، إذ أطلق ناطور ديكاً غرائبياً في جنبات الحكاية، كأنه مجاز لحالته وللمشهد كله؛ ديك سلمان ناطور فقد دجاجاته، وأربكت الكهرباء زمانه، وتشظّى بعض مكانه وانقرض بعضه الآخر، لكنه يصرّ على القبض على معنى وجوده الوحيد والأخير ممثلاً في الصياح خارج التوقيت المضبوط على خيوط شمس استعصى إشراقها.

المسألة مسألة صوت إذاً! لنتأمل ما قاله سلمان "الممثل" لجمهوره، وهو يجسّد شخوص عمله "ذاكرة" على خشبة المسرح: "لن تكون مسرحية ولن آتيكم ممثلاً، إنها خلاصة الحكاية، وما أنا إلاّ الصوت الذي ظل في الذاكرة." هو صوت الديك إذاً، يطل مثل خيط أخير يشد ذاكرة المكان والفقدان إلى بقاء ممكن.

والمسألة مسألة جسد أيضاً، حين تتجلى عبقرية الجسد وهشاشته، في كونه، مثل اللغة، مادة الهوية وموضوعها وأداتها في آن معاً. فَهم ناطور مبكراً الجسد كمكان، وكموضوع للهيمنة تترك عليه الاضطهادات بصماتها، فاللحظة النكبوية إشارة زمنية غير عادية ترسم بتقاطعها مع المكان المنكوب صليباً مهولاً، وترتسم على أجساد الضحايا شقوقاً قرأها ناطور بدقة متناهية على وجه بطله وراويه "الشيخ مشقَّق الوجه".

تتمثل ذروة تعبير ناطور عن تماهيه مع موضوعه، وذروة استشعاره مكانية الجسد، وجسدية المكان، في إعارة جسده لشخوص حكاياته، إذ يصعد المؤلف الذي لم يكن ممثلاً في يوم من الأيام، على خشبة المسرح، لسدّ الفجوة بين ممكن اللغة وهول الواقع الذي تحكيه. وعندما سُئل ناطور عن توجهه إلى مَسْرحة "ذاكرة"، قال بدقة بالغة البراعة: إنما "ذاكرة" هي التي مَسْرحتني.

التاريخ يبدأ من الفرد، تقول انتباهات ناطور، وهو إذ يهتدي إلى استدعاء الجماعي عبر استعادة ما هو شخصي، كأنه كمؤلف خلاصة النكبات كلها، يقول: "ولدت بعد حرب ٤٨، دخلت المدرسة في حرب السويس، أنهيت الثانوية في حرب حزيران، تزوجت في حرب أكتوبر، ولد ابني الأول في حرب لبنان، ومات أبي في حرب الخليج، حفيدتي سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة."

تقول جميلة في "هي، أنا والخريف": "كنتم تناضلون من أجل تحرير العالم. كنتم تحلمون بتبييض صفحة التاريخ، لم تنظروا إلى المواقع الصغيرة، لم تروا الأطفال والنساء بأطراف أعينكم، ولا تأملتم يوماً زهرة تذبل. ماذا كانت النتيجة؟ لقد انهزمتم." كأن جميلة تنطق بحكمة مؤلفها، فهو لم يركن إلى جدارة العدل وحدها لضمان نجاة الحكاية، بل بحث عن أدوات جمالية مختلفة، وعن حساسيات تتجاوز البكاء: اتّكأ على أصوات الناس ولهجاتهم وروائحهم وضجيج حياتهم، دفع بالسخرية إلى أقصاها عن وعي بكونها سلاح الضعفاء، وركّز على الأسماء؛ ذِكر أسماء الناس العاديين والشوارع المنسية والبيوت البسيطة.

يُعَبِّر نص ناطور عنه إلى حدّ كبير، في تقدميته ورقيّه الأخلاقي وتسامحه وانفتاحه وثقته بنفسه، وهي الصفات التي تعبّر عن نفسها في قدرته على الإصغاء داخل نصّه، ونجاته من نقيصة التعالم، وإعطائه الرواة والشخوص مساحاتهم من دون أدنى خوف.

لم ينتظر سلمان ناطور الحكاية لتأتي إليه، حمل حقيبته الجلدية ومشى إليها بين القرى، جالَس الناس، وحكى لهم وسمع منهم. لم يُقِم في برج عاجي، وإنما لامس الميدان وضغط على الأعصاب الموجعة للاحتلال، فجرّب الاعتقال والإقامة الجبرية ودَهْم مسرحياته. عمل في الصحافة، وكتب القصة والمسرح والمقالة الساخرة والقصص التوثيقية وأدب الأطفال؛ انفتح على جغرافيات فلسطين، وتنفّس من رئة إنسانية واسعة، وقفز بين الأنواع الأدبية كلها، وتقافز بها داخل العمل الواحد بلا أي نشاز أو افتعال.

ليس أجمل وأوفى ممّا مهّد به سلمان لكتابه "سفر على سفر" بعنوان "قبل المغادرة"، معبّراً عن وعيه لمعنى عمله المفتوح على الممكنات كلها، وتماهيه تماماً مع مكانه وإنسانه، كأن المكان ذريعة جمالية كافية لتنوب عمّا هو دونها، وكأن خصوصية الموضوع وانتماءه إلى الحياة باستعادته ذاكرة الفقدان بحيواتها وشخوصها وأصواتها وروائحها يبيحان له أن يتجلى بأي شكل كان، وبلا شكل أيضاً: "ليس في هذا السفر ما يثير الدهشة، وليس فيه ما يعلّم عن مكان قديم / ليس سيرة وليس مسيرة وليس رواية وليس أدب الرحلة والترحال/ ليس وصفاً لعبقرية المكان وليس حداثة ولا شعراً / ليس عن الفلسطيني المشرد ولا عن الفلسطيني الباقي في وطنه/ ليس عن الإنسان / ليس عن المكان ولا عن المنفى ولا عن الوطن / ليس عني وليس عنكم / هو نص لعلامات السؤال وعلامات التعجب / هو المكان الفلسطيني بلا حدود، والزمان الفلسطيني بلا بداية وبلا نهاية / هو الإنسان الفلسطيني بلا مكان ولا وطن ولا زمن ولا أمل ولا حلم / هو اللامكان واللازمان واللاأرض واللاأسماء / هو نفي مطلق، وهو فكرة مجردة، وهو لا شيء / تماماً لا شيء/ ومن هنا تبدأ الحكاية."

تقول الوقائع إن "صياح" ناطور لم يذهب سدى، لقد أثمرت الذاكرة التي حرسها مع جيله وجيل سبقه، أول ما أثمرت، في حيفاه، إذ نراها تتحول إلى عاصمة ثقافية في فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، وأثمرت لغة عربية جميلة في كتابات جيل جديد في الجليل والمثلث ويافا استعصى على الأسرلة، وأثمرت في شباب وشابات نراهم يخرجون من منجز الثقافة إلى الميدان، ويحرسون بقايا المكان؛ رأيناهم يتصدون بكفاءة وشجاعة

لتهويد النقب في الماضي القريب على سبيل المثال لا الحصر.

الموت ـ بمعنيَيه الوجودي والكولونيالي ـ المدبّر قاطع طريق، وبه تفقد الطرق كثيراً من معناها. مات سلمان ناطور، لكن الطريق التي قطعها نحو نهايته تظل مثقلة بالمعاني، وباقتراحات مقنعة لبدايات متجددة. هذه هي الحكاية. ■

أبرز أعمال سلمان ناطور

"ما وراء الكلمات" (قصص)، (القدس: د.ن، ١٩٧٢)؛ "الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري" (قصص)، (عكا: الأسوار، ١٩٧٨)؛ "وما نسينا" (قصص تسجيلية عن النكبة)، (حيفا: دار الجديد، ١٩٨٣)؛ "خمارة البلد" (قصص ساخرة)، (حيفا: د.ن، ١٩٨٧)؛ "ستون عاماً، رحلة الصحراء: ذاكرة ـ سفر على سفر ـ انتظار" (ثلاثية)، (عمّان؛ رام الله": دار الشروق، ٢٠٠٩)؛ "هي، أنا والخريف" (رواية)، (حيفا: دار راية، ٢٠١١).

ولسلمان عدة مسرحيات، أبرزها:

"هبوط اضطراري"، المسرح الوطني الفلسطيني (إخراج مازن غطاس) ١٩٩٩؛ "ذاكرة"، مسرح السرايا، يافا، (إخراج أديب جهشان) ٢٠٠٣؛ "هزّة الغربال" (إخراج سليم ضو)، الناصرة، ١٩٩٢.

هذا إلى جانب قصص للأطفال، وكتب جمع فيها مقالاته الساخرة ومداخلاته النظرية في الثقافة، وكثير كثير من الترجمات عن العبرية.